

خاتمة لرواية ذاكرة الجسد

بقلم: أوريت فاكنين-يكوتيلي

"وتفجرت قسنطينة بنابيع داخلي.

أرتوي من ذاكرتي سيديتي..

فكلّ هذا الحنين لك" (ص 85).

عند الانتهاء من قراءة الرواية تحوّلت القصة عندنا نحن القراء إلى ذاكرة، وانضمت إلى طبقات ذكريات الجسد وإلى أحلام راوية أحلام. كيف يمكننا الانتقال خلال لحظة واحدة من شاعريتها المميّزة إلى موقف متمعّن ومقتضب من دون أن ننتهك الذاكرة؟

لم أستطع قراءة هذه الرواية إلاّ عبر ذاكرتي الشخصية. أقرأ فيها والدتي، ابنة قسنطينة، التي تحكي عن عائلتها، عن مدينتها وعن وطنها، تتشابك جميعها معاً في مشهد الجسور الذي يعود وينكشف بين صفحات الرواية. من خلال استحضر جسور قسنطينة (وفي الواقع فقد صدرت الرواية في إحدى ترجماتها للغة الإنجليزية بعنوان *The Bridges of Constantine*)، رسمت والدتي أمام بناتها ألم وخيبة أمل المنفى داخل وطن جديد ومحبوب، والانفصال عن وطن ضاع إلى الأبد. على غرار ما يحدث في الرواية، في سياق الحرب بين اللغة القومية ولغة الشتات، الاستعمارية، بين لغة العدو ولغة صاحب السيادة الجديد، أحييت والدتي من أجلانا بالعبرية قسنطينة من خلال وصف الجسور، والأحياء، والوادي العميق، والكهوف والخوف من الجنّ والجنيات التي كانت تقيم فيها. وقد فعلت ذلك بصوت خافت وعلى استحياء من الحداثة المتطهّرة من المحلي، والأنثوي الغيبي، وكانت تُطلعنا على التخبّط الذي رافق البتّ في ذلك الوقت بين اللغات النسائية والذكورية، والمهيمنة والمهيمن عليها، والمحلية والقومية، تماماً كتلك التخبّطات التي تتوقّف عندها الرواية.





مكتوب | سفرة عربيت بعبريت
מכתוב | אדב ערביי بالعبرיית

وُلدت أحلام مستغانمي عام 1953 لأب انخرط في صفوف النضال من أجل تحرير الجزائر ونُفي إلى تونس إبان الكفاح من أجل استقلال بلاده. عند استقلال الجزائر عام 1962، عادت أسرتها إلى الجزائر، وعُيّن والدها في منصب رفيع في الحكومة. ترتبط المسألة السياسيّة في الرواية بالنضالات الأخرى المتعلّقة بالاستقلال، في حقل الثقافة واللغة. وقتذاك كان نحو تسعين بالمائة من سكّان الجزائر لا يعرفون القراءة والكتابة. أما أولئك الذين كانوا يعرفون ذلك، فجلبهم فعل ذلك بالفرنسيّة، و فقط ثلاثين في المائة منهم كان بإمكانهم قراءة العربيّة الفصحى أيضًا. هذا بالإضافة إلى أنّ ستين بالمائة من سكّان الجزائر استخدموا الفرنسيّة في الحياة اليوميّة كلغة ثانية بعد اللهجة العربيّة الجزائريّة الدارجة والأمازيغيّة.

في ضوء هذا الواقع، كانت أولى تصريحات أحمد بن بلّة، أحد أعضاء جبهة التحرير الوطني (الـ FLN)، والذي عُيّن عند إطلاق سراحه من السجن الفرنسيّ كأول رئيس للجزائر: "نحن عرب!". كجزء من سيرورة بناء الدولة التي أشرف عليها، بدأ بن بلّة بحملة التعريب. وعليه، فقد تمّ الإعلان عن العربيّة الفصحى اللغة الرسميّة والقوميّة في الدولة الجديدة، انطلاقًا من الأيديولوجيا التي قالت إنّه يتعيّن على المجتمع الجزائريّ العودة إلى الجذور التي كانت تعتبر في أوساط النخبة الحاكمة جذورًا عربيّة. ولكن، خلافًا لقرار التخلّي عن الفرنسيّة - لغة العدو - لصالح العربيّة لغة القرآن والإسلام، فقد اعتقد الكثيرون أنّ الفرنسيّة هي لغة الحداثة والعلم والتكنولوجيا، ولذلك يجب مواصلة استخدامها.

اتّسمت سنوات حكم بن بلّة بالميل نحو الحكم التسلّطي، وقد اعتبر جميع الأحزاب خارجة عن القانون باستثناء جبهة التحرير الوطني، وواصل بن بلّة التضييق على شركائه في الحزب، حتّى تمّت تنحيته أخيرًا عن الحكم في انقلاب عسكري في شهر حزيران 1965، قاده نائبه هوّاري بومدين الذي شغل منصب وزير الدفاع أيضًا. تبنّى بومدين الذي كان يميل هو الآخر نحو الحكم الفردي، سياسة التصنيع، والتأميم، والاقتصاد الاشتراكي وتعزيز توجّه التعريب، وألزم موظّفي الدولة بتعلّم العربيّة واستخدامها وفرض تعلّم العربيّة في المدارس.

كانت أحلام مستغانمي ابنة الجيل الأوّل الذي حظي بتعلّم العربيّة في الجزائر. وفي سنّ الـ 17، بدأت إلى جانب دراستها بتقديم برنامج "همسات" اليومي في الإذاعة،



مكتوب | سفرة عربيت بعبريت
مکتوب | ادب عربي بالعبرية

وأصبحت شخصية معروفة في الدولة. بعد فترة قصيرة، أصبحت أول سيّدة جزائرية تنشر ديوان شعر بالعربية. في سنّ العشرين تقريباً، التقت بالصّحفي والمؤرّخ اللبناني جورج الراسي، فنشأت بينهما علاقة حبّ، تزوّجا على إثرها وهاجرا سوياً إلى باريس في سنة 1976.

بعد وفاة بومدين عام 1978، واصل الرئيس الجديد الشاذلي بن جديد الدفع بسيرورة التعريب إلى الأمام كجزء من ثورة ثقافية تسعى إلى إحياء ماضٍ عربي-إسلامي متخيل، والتواصل مع العالم العربي الثوري في حينه المناهض للغرب الإمبريالي. لكن لم تُفض هذه الإصلاحات إلى التغيير المنشود. على الرغم من اعتماد اللغة العربية في التدريس، إلا أنّ تلاميذ المرحلة الثانوية اعتمدوا الفرنسية بقدر أكبر في الدراسة، وكانت الفرنسية شرطاً لقبولهم في غالبية الأقسام الجامعية. أدت الفجوة القائمة بين الأيديولوجيا والواقع إلى نشوء أزمة هويّة لدى الأدباء الجزائريين المعاصرين الذين كتبوا بالفرنسية فقط. كان الأديب مالك حدّاد (الذي تُهدي إليه مستغانمي روايتها) يتذمّر من ذلك لكونه "يشعر" بالعربية لكن يمكنه التعبير عن أفكاره بالفرنسية فقط. دفع هذا النقد الذاتي، الذي ارتبط بالنقد الاجتماعي، بعض الأدباء الجزائريين إلى الهجرة، وتوقّف آخرون ببساطة عن الكتابة، مثل مالك حدّاد.

في أعقاب سلسلة من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية في نهاية الثمانينيات، اعتمد الرئيس بن جديد الانفتاح في الحياة السياسية وسمح بتعدّد الأحزاب. ربّما بتأثير هذا الانفتاح، تقلّصت عقدة الذنب لدى الأدباء الجزائريين بشأن استخدام الفرنسية. قال حينذاك الكاتب ياسمين خضراء (الاسم المستعار لمحمد مولسهول)، الذي يُعتبر من أكثر الأدباء الجزائريين الذين تُرجمت أعمالهم في العالم، إنّهُ لا يعرف لماذا يُنظر إلى الفرنسية كمرض يجب الخجلُ منه، وأضاف أنّهُ بسبب هذه النظرة فقدت الجزائر أدباء هامّين مثل مالك حدّاد.

اندلعت الحرب الأهلية في الجزائر في عام 1991. فازت "جبهة الانقاذ الإسلامية" (FIS) في الجولات الانتخابية الأولى في الانتخابات التي جرت في العام ذاته. وخوفاً من أن تُمسك حكومة إسلامية بزمام السُلطة، فقد ألغى الجيش نتائج الانتخابات، واستولى على الحكم وعزل الرئيس بن جديد. أزهقت في الصراع الذي



مكتوب
سفرات عبرية وعبرية
مكتوب
أدب عربي بالعبرية

نشأ في السنوات اللاحقة أرواح نحو مائة ألف شخص، إلى أن نجحت الأطراف بالتوصل إلى وقف لإطلاق النار في نهاية التسعينيات.

كانت أحلام مستغامي تعيش في تلك الفترة في فرنسا، وقد درست علم الاجتماع في جامعة السوربون وحصلت على درجة الدكتوراه في عام 1982. تناول بحثها غياب التفاهم والتعقيدات القائمة بين الجنسين في المجتمع الجزائري، ونُشر في عام 1985 ككتاب بالفرنسية بعنوان "الجزائر: النساء والكتابة". هاجرت مستغامي عام 1993 من فرنسا إلى لبنان، وعرضت عليها "دار الآداب" هناك نشر روايتها ذاكرة الجسد. أقدم المحرّر، الذي أدرك جودة الرواية العالية التي تفصح عن خيبة جيل كامل من العرب بعد إنهاء الاستعمار، على نشر الرواية على الفور، وفعلاً حققت الرواية نجاحاً منقطع النظير. تصدرت سنوياً منذ ذلك الحين طبعة عربية جديدة للرواية، وبيع منها حتى الآن ما يربو على مليون نسخة. كما نُشرت الرواية بالإنجليزية بترجمتين، وترجمت إلى الفرنسية والإيطالية ولغات أخرى.

إضافة إلى كتب وروايات أخرى لمستغامي، ولكونها الأدبية الجزائرية الأولى التي نشرت باللغة العربية، فقد كانت هذه الرواية سبباً في نيلها عدداً كبيراً من الجوائز العربية والعالمية.

على الرغم من صعوبة قراءة الرواية بمعزلٍ عن الصراع بين لغة المُحتلّ ولغة التابع الخاضع للاحتلال، إلا أنه من الواضح أنها تتطرق لأكثر من لغتين، وبالذات للغات المتعددة القائمة في العلاقات بين الرجال والنساء. تكتب مستغامي قصة اللغة الذكورية التي ترسمها كي تشفي جراحها، لكنّها ترفض الانسجام مع الذكورة العسكرية لحكام الجزائر الذين استولوا عنوة على ثورة الحالمين وأضحوا القامعين الجدد في البلاد، وكل لك انطلاقاً من الحقّ الذي لا يمكن الاعتراض عليه لمقاومة قوة الاحتلال الفرنسي. تصف أحلام قوّة الكفاح الوطني الباعثة للحياة والمميتة، وهي القوّة التي تمنح الحرّية، ولكنها تُبقي لغة الصراع العنيف وتوجهها ضدّ نساء البلاد والفقراء والمناضلين من أجل الحرّية الذين باتوا بين عشية وضحاها أعداءً للسلطة. تكتب أحلام عبر شخصية خالد، وبالتالي تقترح لغةً معقدةً من دون طمس موقفها/ موقفه الواضح: العربية لغتنا، قسنطينة هي الوطن الذي نتألم ونبكي لأجله وننقذه بالعربية. يتحرّك أبطال الرواية بين كتابة المحليّ - المناظر الطبيعية لقسنطينة،



مكتوب | سفرة عربيت بعبريت
מכתוב | אדב ערביי באלעברית

وأنوثنها ونساءها، جمالها وجمال عوالمهنّ - وبين الأدب العالميّ الغنيّ، والفرنسيّة التي توقّر ظاهرياً الحرّيّة للنساء المضطهدات من قبل الذكورة العربيّة. تقترح الشخصيات ذكورة مع فارق دقيق وبديلاً للسطوة العسكريّة التي سحقت أحلام التحرير. لا تُحرّر النساء من خلال رفض الرجال الجزائريين، ضحايا الاستعمار وأشكال القوّة التي خلفها من بعده، بل من خلال خلق الصداقة معهم ورسم الجسور باللغة العربيّة لمستقبل الجزائر.

بعد عدّة أعوام على نشر الرواية، تمّ التصديق مجدّداً في عام 1996 على قانون اعتماد العربيّة بوصفها اللغة الرسميّة الوحيدة في الدولة. اعتبر الأمازيغ هذا القانون تهديداً مباشراً لهم. فردّت أحزابهم بغضب وطالبت بالاعتراف بلغتهم الأمازيغيّة كلغة رسميّة أيضاً؛ وذلك لأنّها بنظرهم لغة جمهور كبير في البلاد. في اليوم الذي حدّدته الدولة ليوم تطبيق التعريب، قُتل المغنيّ الأمازيغيّ معطوب الوئاس، ونتج عن هذا العمل تصاعد الاحتجاج، بما في ذلك في الشتات الجزائريّ في فرنسا، ضدّ التعريب والأسلمة والمطالبة بالاعتراف بالأمازيغيّة كلغة رسميّة.

فاز عبد العزيز بوتفليقة في انتخابات عام 1999. يعمل بوتفليقة منذ تولّيه السلطة من أجل التسامح والانفتاح، كما أنّه مهّد الطريق التي أفضت إلى الاعتراف في العام 2016 بالأمازيغيّة لغة رسميّة أخرى في الجزائر. في الوقت نفسه، يزداد باطراد عدد الناطقين بالفرنسيّة في الجزائر، ويعتبر هذا المجتمع ثاني أكبر مجتمع ناطق بالفرنسيّة في العالم. لم يتبدّد بعدُ التوتّر القائم بين الفرنسيّة والعربيّة الذي تعبّر عنه الرواية. صرّح الأديب كاتب ياسين بما يلي: "أكتب بالفرنسيّة لأنّ فرنسا غزت بلادتي، واستولت عليها بقوّة كبيرة، لدرجة أنّني مضطّرّ إلى الكتابة بالفرنسيّة كي أبقى على قيد الحياة. مع ذلك، لا تزال جذوري العربيّة والبربريّة حيّة". يحاجج ألبير ميمي أنّ الفرنسيّة تقضّم لغة الأمّ وتُحدث "دراما لغويّة" لدى الأدباء المغاربة الذين يضطّرون إلى أن يقيموا بدواخلهم عالمين نفسيين وثقافيين في مواجهة دائمة. في المقابل، حاجج آخرون أنّ الكتابة بالفرنسيّة بالذات تساعدهم على استعادتهم لتراثهم المفقود من جديد وضمن هويّتهم، وهكذا تحوّلت لغة الاحتلال بالنسبة لهم سلاحاً بأيدي أدباء ما بعد الاستعمار يطرد العدو الاستعماري وإرثه.



מכתוב | ספרות ערבית בעברית
מכתוב | أدب عربي بالعبرية

לן تنمو اليد التي بُترت من جديد مطلقًا، وذاكرة غيابها لى تختفي أبدًا. لكن العمل الإبداعي والقوة التي تصاحب محاولة الشفاء، والتذكر والنسيان، بواسطة اللغة والرسم والمحبة والجسد، يبقيانا مع ألم على الوطن، على أنفسنا، ولكن كذلك مع أمل غير قليل.

ترجمة عن العبرية: صالح علي سواعد

تحرير لغوي: نبيه بشير

